شينج هو .. المغامر الصينى العنيد !

●● رحلة الإثارة من الشرق إلى الغرب :

فى الوقت الذى كان فيه تُجّار أوربا وأثرياؤها يسعون للوصول إلى الشرق الأقصى عبر البحار بدلاً من سَلْكِ طريق الحرير الذى رُدمت بعض أجزائه ، ظهر قائد بحرى وهو «شينج هو» أراد اجتياز هذه الرحلة بالعكس .. أى الخروج من الصين متجهاً للغرب ، وهو ما لم يسع إليه أحد من قبل من دول شرق آسيا . ويا لها من رحلة كانت مثيرة وقاسية أيضاً!.. فقد جهّز شينج هو أسطولاً كبيراً اشتمل على ٦٢ سفينة كبيرة و٢٥٠ مركباً صغيراً .. وبلغ عدد المسافرين حوالى ٣٠ ألف صينى كان منهم أطباء لرعاية المرضى أثناء السفر ، ومترجمون لتفهم لغة الشعوب التى تزورها الرحلة ، وتجّار ، وحرفيون ، وقساوسة ، وغير ذلك . كما استعدت الرحلة للسفر بأخذ كميات كبيرة من الخضراوات والفاكهة والتى زُرع بعضها على سطح السفن نفسها لتوفير الغذاء اللازم الطازج للمسافرين ، وبذلك كانت هذه الرحلة الصينية أكثر تنظيماً من رحلات أهل الغرب . كما كانت السفن الصينية ذات شكل مميز عن سفن الغرب . فكانت سفناً عملاقة يحتوى بعضها على خمسة أشرع ، وكانت تسمى تلك السفن العملاقة « Junks» ومن الطريف أن هذه النوعية القديمة جداً من السفن لا يزال الصينيون يستخدمونها حتى الآن .

السفن الصينية المميزة « Junks »

- *خط سير الرحلة* :

ابتدأت الرحلة من الصين ، ومضت خلال بحر الصين.. وهناك زارت الرحلة عدة مدن .. ثم استكملت السير عبر المحيط الهندى ، وزارت ٣٠ مدينة.. ثم استكملت الرحلة طريقها إلى الجزيرة العربية ، ثم اتجهت عبر البحر الأحمر إلى مكة والتى كانت آخر محطة للرحلة . وخلال تلك الرحلة الطويلة كان المترجمون والمستكشفون يقومون بجمع وتدوين المعلومات والاكتشافات المثيرة . ولكن فى الحقيقة أن الرحلة تعرضت لمخاطر كثيرة أثناء الإبحار مما جعلها لا تستكمل طريقها إلى دول الغرب ، حيث مات أعداد كبيرة من البحارة والمسافرين .

ومات «هنرى» وجاء «فاسكو داجاما» ليستكمل محاولاته فى الوصول إلى الشرق الأقصى !

طريق ملاحي جديد إلى الشرق الأقصى :

البرتغاليون ، لا شك هم روّاد الملاحة . وإليهم يرجع الفضل فى اكتشاف طريق جديد للشرق الأقصى بالملاحة فى اتجاه الساحل الغربى للقارة الإفريقية .. وذلك الطريق الذى أحدث تغيرات كبيرة فى حركة الملاحة العالمية . وقد ابتدأ التفكير فى سلك ذلك الخط الملاحى الجديد الأمير «هنرى البرتغالى» .

لقد ظل هنرى ولمدة ١٥ سنة يتحاور ويجتمع مع البحّارة وصانعى السفن والجغرافيين وكل من له علاقة بالملاحة والاستكشافات البحرية من أجل التوصل إلى نجاح فكرة الملاحة بمحاذاة الساحل الغربى لإفريقيا ، وكان يمد هؤلاء البحارة والمساعدين بالذهب والأراضى ليحفزهم على مساعدته ونجاح فكرته .

بحر الظلمات والأهوال !

الأمير هنرى الملاح

وأسفرت تلك المحاولات عن خروج عدة سفن حديثة مجهّزة للملاحة فى ذلك الاتجاه (الساحل الغربى لإفريقيا) لكنها لم تستكمل رحلتها . فبعدما وصلت إلى منطقة «رأس بوجادور» [منطقة فى جنوب «جزر الكناريا الأسبانية» وتجاه الساحل الجنوبى الغربى للمغرب] شعر الملاحون بخوف ورهبة بعدما أحسوا أنهم مقبلون على بحر واسع مرعب شديد الظلمة (*) مما جعلهم يعودون مرة أخرى بسفنهم إلى أوطانهم .

(*) عرف المحيط الأطلنطى فى التاريخ القديم باسم بحر الظلمات لمهابته واتساعه وحشية الملاحين من ارتياده .

* هنرى الملاح مصمم على نجاح فكرته !

وفى سنة ١٤٣٣ كرر هنرى محاولة الملاحة فى نفس الاتجاه فبعث بسفينة من البرتغال للملاحة بمحاذاة الساحل الغربى لإفريقيا .. واستمرت السفينة فى رحلتها حتى تجاوزت رأس «بوجادور» لكن السفينة عادت مرة أخرى بعدما شعر البحارة بالخوف من اجتياز المزيد داخل البحر الممتد الفسيح !

وانتهت محاولات «هنرى» الملاحية عند ذلك الحد ، حيث توفى بعد ذلك فى سنة ١٤٦٠ . واستكمل «البرتغاليون» محاولات «هنرى» فى الوصول إلى الشرق الأقصى . وفى سنة ١٤٩٧ استطاعت السفن البرتغالية الملاحة بمحاذاة الساحل الغربى للقارة الإفريقية حتى وصلت إلى أدنى نقطة فى جنوب القارة عند رأس الرجاء الصالح .

* رحلة «فاسكو داجاما» المثيرة !

وفى نفس السنة التى مات فيها «هنرى الملاح» وُلد ملاح برتغالى جديد اعتبره التاريخ أعظم الملاحين والمستكشفين البرتغاليين ، وهو «فاسكو داجاما» ، والذى قاد رحلة برتغالية ناجحة إلى الشرق الأقصى . ففى الثامن من يوليو سنة ١٤٩٧ ، ابتدأت أول رحلة ناجحة فى التاريخ للوصول إلى الشرق الأقصى بالملاحة بمحاذاة الساحل الغربى للقارة الإفريقية ثم خلال المحيط الهندى . بدأت الرحلة من نهر تاجوس فى البرتغال فى الاتجاه إلى رأس بوجادور ، ثم إلى رأس الجزر الخضراء [منطقة جنوب رأس بوجادور] ، ثم استمرت الرحلة من تلك المنطقة لقرابة شهرين حتى رأى الملاحون أرضاً تجاههم فهللوا فرحين ، ورفعوا الأعلام ، وأطلقوا الأعيرة النارية . كانت تلك الأرض هى أرض خليج هيلينا [فى شمال رأس الرجاء الصالح] .. ثم استمروا فى الملاحة لمسافة قصيرة حتى وصلوا عند الطرف الجنوبى للقارة الإفريقية وهو خليج رأس الرجاء الصالح، ومن هناك استكملوا الملاحة لمدة شهرين آخرين بمحاذاة الساحل الجنوبى الشرقى للقارة الإفريقية فى الاتجاه إلى المحيط الهندى . ويبدو أن فاسكو دا جاما لم يستطع عند تلك المنطقة استكمال رحلته فى الاتجاه الصحيح !

* ابن ماجد يقود الرحلة البحرية بنجاح !

وفى يوم ٢٥ يناير ، لَمحَ فاسكو دا جاما ولأول مرة سفناً عربية محملة بضائع من التوابل والأعشاب والذهب والفضة . وعند منطقة ماليندى [ميناء على سواحل كينيا فى جنوب الصومال] استطاع إلحاق بحار عربىّ فَذّ برحلته لإرشاده للطريق الصحيح .. وكان ذلك البحار هو أحمد بن ماجد . وفى يوم ٢٠ مايو استطاعت الرحلة الوصول بنجاح إلى الميناء الهندى فى كالكتا بفضل إرشاد وتوجيه هذا الملاح العربى الماهر . وكانت كالكتا فى تلك الفترة ميناء نشطاً وثرياً للغاية ، ولاحظ فاسكو دا جاما أن التّجار العرب هناك يحصلون على أنواع قيمة من الحرير ويمنحون حاكم كالكتا [ساموزّين] فى المقابل لها هدايا قيمة . لكن دا جاما لم يكن لديه هدايا كافية ومناسبة لمنحها للحاكم . ومن ناحية أخرى فإن التّجار الهنود لم يرغبوا فى التعامل مع البرتغاليين ، فكانوا يفضلون التعامل مع العرب والمسلمين ولذا لم تستغرق فترة إقامة فاسكو دا جاما بالهند طويلاً ، واكتفى بالحصول على كميات من القرفة والفلفل الأسود ، وعاد إلى موطنه . وكانت رحلة العودة شاقة للغاية بسبب تعرض الرحلة لأجواء مناخية قاسية . ولما وصل فاسكو دا جاما إلى موطنه البرتغال استقبل استقبال الأبطال ، فهو أول من استطاع أن يسلك طريقاً بحرياً جديداً نحو الهند .

** من هو أحمد بن ماجد ؟

صورة تخيلية لأحمد بن ماجد

هو «شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى بن أبى الركائب النجدى» .. وهو عربى أصله من بنى تميم فى نجد بالمملكة العربية السعودية . واشتهر ابن ماجد باسم «أسد البحر» لدرايته الواسعة بفنون الملاحة وعلوم البحار .. وتضاعفت شهرته بعد ما أرشد الربان البرتغالى «فاسكو دا جاما» إلى الطريق البحرى للهند . ولأحمد بن ماجد إنجازات عظيمة فى مجال الملاحة والاستكشافات البحرية . فقد استطاع

سلك مسارات ملاحية غير مألوفة . واستطاع السفر بسفينته فى غير مواسم السفر المتعارف عليها ، وهو ما لا يقدر على تحقيقة سوى ملاح بارع خبير .

ولابن ماجد ابتكارات فى فنون الملاحة وفى ضروب الآلات المستخدمة فيها.

كما أنه صاحب فضل فى مجال علم الحساب ، وهو علم وثيق الصلة بالملاحة لأن تحديد مسار السفينة يقتضى إجراء الكثير من العمليات الحسابية . ويعتبر ابن ماجد أول من استخدم مصطلح «علم البحر» المعروف الآن باسم «oceanography» والذى ذكره فى بعض مؤلفاته عن علوم البحار .

* الرقيق .. أفضل تجارة للأوربيين !

ومنذ أن عرف البرتغاليون الطريق الجديد إلى الهند مروراً بسواحل القارة الإفريقية انتعشت تجارة الرقيق . إنهم كانوا يتاجرون فى الحرير والعاج والتوابل لكنهم وجدوا أن تجارة الرقيق أكثر مكسباً من تلك البضائع . فمنذ سنة ١٤٥٠ تمكن البحارة البرتغاليون من اقتياد الآلاف من الآفارقة الزنوج لبيعهم كعبيد فى دول أوربا . ومات منهم أعداد كبيرة أثناء الرحلات البحرية من إفريقيا إلى البرتغال .

تجارة العبيد .. كانت فى مقدمة التجارات التى فضلها البرتغاليون